مصطفى غلفان

التفكير اللساني في الحضارة العربية
لعبد السلام المسدي

كتاب الأستاذ عبد السلام المسدي «التفكير اللساني في الحضارة الغربية» الصادر عن الدار العربية للكتاب (ليبيا ــ تونس 1981) هو في أصله بحث جامعي تقدم به صاحبه لنيل شهادة دكتوراه الدولة في اللغة والادب (جامعة تونس 1979) (يقع الكتاب في 416 صفحة من الحجم المتوسط. ويضم في نهايته مجموعة من القوائم باسماء المصادر والمراجع العربية والاجنبية. كما يضم لائحة للمصطلحات الاجنبية المذكورة في هوامش البحث، ثم فهرسا للاعلام العربية والاجنبية واخيرا تفصيلا لمحتوياته...)

والواقع أنه من الصعب علينا أن نقدم تحليلا وافيا للكتاب، وذلك أن مناقشة دقيقة تقتضي أولا الاحاطة الشاملة بفحوى البحث ومضامينه وهذا شيء يصعب علينا القيام به في مقال كهذا مما سيجعلنا نركز اهتمامنا على أهم الافكار الواردة فقط.

يهدف هذا العمل الجامعي الى البحث في «النظرية اللغوية» عند العرب «لا من حيث هي تقنيات نحوية وصرفية وبلاغية ومعجمية وإنما من حيث هي تنظير للظاهرة اللسانية عموما» (ص 33 من الكتاب).

وينطلق المؤلف في بحثه عن أسس هذه النظرية ــ أي أسس التفكير اللساني عند العرب ــ اعتمادا على جملة من الاركان (وهي مختلف الكتابات في الثقافة العربية القديمة) وهذه الاركان يقسمها المؤلف الى خمسة أصناف.

- الأعمال اللغوية
- الأعمال الادبية
- الأعمال الفقهية
- الأعمال الفلسفية
- مقدمة ابن خلدون.

وتندرج تحت الصنف الاول كتب النحو وأصوله، ومختلف الدراسات البلاغية ومجموع المعاجم اللغوية بجميع اتجاهاتها ويضم الصنف الثاني المؤلفات الادبية الرائدة في الأدب العربي القديم مثل «البيان والتبيين» و «الحيوان» للجاحظ، وكتب التوحيدي وغيرها من امهات

الكتب الادبية في الثقافة العربية.. اما الصنف الثالث فيشمل كتب أصول الفقه وتفاسير القرآن وكتب علم الكلام...

وتمثل الصنف الرابع كتب الفلسفة بجميع مذاهبها وتشعباتها ونجد في الصنف الخامس مقدمة ابن خلدون.

وعموما يمكن القول بأن هذه المادة المعتمد عليها كـ«مدونة» تكاد تكون جامعة شاملة لأهم كتب التراث العربي في مختلف جوانبه الفكرية وفي جميع ابعادة واتجاهاته المذهبية...

واذا كان لكل بحث «هدف» وغرض فكري معين فان غرض مؤلفنا من هذه الدراسة هو «الكشف عن جوانب مغمورة من لسانيات العربية» ص 34... انطلاقا من أن الغرب قد تجاهل ــ في نظر المؤلف ــ المرحلة العربية وذلك عندما راح يؤرخ للفكر اللساني في الحضارة الانسانية دون أن يعير أدنى اهتمام لقيمة الثقافة العربية في المجال اللغوي. ويؤكد المؤلف من جهة أخرى أن بحثه ليس فقط «سدا للثغرة الاعتباطية في تاريخ الفكر اللغوي» وانما هو ــ كما قلنا ــ محاولة موضوعية للكشف عن مساهمة العرب في ميدان اللغة...

والواقع ان محاولة الكشف عن هذه «الجوانب المغمورة» سواء لسد هذه الثغرة أو لغاية أخرى تعني أننا أمام بحث يعتمد اسلوب «القراءة» كمنهجية لتحليل مضامين التراث العربي ويدرك المؤلف صعوبة الطريقة التي نهجها في بحثه فراح يؤكد أنه سيقرأ هذا الموروث بطريقة موضوعية مع «الحرص على تحاشي التعسف في الاستنطاق والاعتباط في التأويل».

اننا في هذا البحث ــ كما في غيره من الدراسات التي تنحو منحى القراءة ــ أمام اشكالية اساسية هي اشكالية القراءة نفسها كيف يجب أن تكون وما هي ابعادها وحدودها.

وانطلاقا من أن البحث الذي نتناوله لا يختلف عن غيره من الدراسات اللغوية الحديثة التي تناولت التراث اللغوي القديم بالدرس والتحليل من هذه الزاوية ــ اي دعوة الباحث أنه قام بقراءة موضوعية للتراث العربي ــ فاننا سنحاول أن نرسم اطارا محددا لمفهوم القراءة كما ارادها مؤلف الكتاب. ويتضح أن تحديد «القراءة» كما يفهمها المؤلف وكما طبقها هي وحدها الكفيلة في نظرنا بأن تعطي صورة واضحة عن قيمة الكتاب نفسه كما أنها في رأينا المعيار الاساس لتبيان مدى مساهمة مؤلف الكتاب في توضيح الفكر اللساني عند العرب، اذ بدون هذه المنهجية التي اتبعها المؤلف (وهي القراءة) تبقى المادة المعتمد عليها والقضايا المطروحة معروفة ومتداولة.

ان قراءة الموروث الحضاري عند الاستاذ المسدي تهدف الى «فك تركيباته وتحسس أركان منظومته ونسيج علائقه» (ص 38). وللوصول الى هذه الغاية يعتمد الباحث على توظيف بعض المقولات اللسانية لكن «مع عدم القيام بأية مقارنة صريحة بين نظريات العرب القدامى ونظريات اللسانيين المحدثين». ويؤكد المؤلف أنه سيفعل ذلك لأنه «يحرص على تحاشي التعسف والاعتباط في التأويل» مع الاستعانة في كل ذلك بالاثبات المستمر للنصوص العربية..

الا أننا نشك كثيرا في فعالية هذه المهجية نظرا لعدم امكانية قيام قراءة صحيحة (موضوعية) مادام هناك هدف أساسي وراء هذا البحث لا ينبع من صميم المقروء نفسه الا وهو البحث عن المساهمة الايجابية للفكر العربي في مجال الدراسات اللغوية وبعبارة أوضح فان هَمَّ القراءة هنا سيكون ــ شعوريا أو لا شعوريا ــ هو الاثباث الفعلي لهذا الهدف المعياري» ومعنى هذا كذلك أن استنطاق التراث وتأويله لن يكون مضبوطا ولا موضوعيا مادامت هناك غاية معينة توجهه وهدف لابد من الوصول اليه مهما كانت الوسيلة. كل هذا سيجعل الوصول الى نتيجة موضوعية شيئا صعبا جدا لأن الغاية التي وضعها المؤلف لبحثه ليست دائما واضحة ولا متفقا عليها... وهذه إحدى عيوب (أو على الاقل صعوبات) ذلك النوع من القراءة التي لا تسعى فقط الى ربط القديم بالحديث وانما الى جعل القديم سابقا على الحديث في الابتكار والجدة.. ولقد حاول المؤلف ان يخفي هذا «الهدف المعياري» فأكد أنه يريد بحثا موضوعيا يدرس فيه التراث من أجل الدراسة. يقول«إن هذا التراث مقصود بذاته ولذاته حتى اذا ما جلونا خصائصه نطق بنفسه عن مضامينه النوعية» ص 38.

ولاشك أن بين الهدف الاول وهذا الهدف فرقا كبيرا لا يمكن اخفاؤه. يضاف الى هذا أن القراءة في هذا البحث تقوم على اعتبار التراث العربي «كلًا لا يتجزأ زمانياً ومادة متجمعة في لحظة فحصه وكشف خباياه» ص 38 إن هذا الاعتبار ليس دائما ممكنا تطبيقيا وإن توفرت مقوماته وأسسه النظرية. والواقع أنه من الصعب جدا أن نتصور هذا التراث وحدة متجانسة يسير في اتجاه واحد. هل من الممكن أن نرد كل الموروث الحضاري الى بنية واحدة قارة ولا زمانية ؟ ان هذا يعني إهمال كل التفاعلات والمعطيات المصاحبة لهذا الموروث الضخم، وهل لنا أن نفهم ونؤول التراث ــ أي تراث كان ــ خارج هذه المجموعة من التفاعلات والعوامل التي صنعته ووجهته في خط معين ؟.

ان اعتبار التراث شيئا متجانسا سمح لمؤلف الكتاب باستنتاج أشياء لا تتفق وحقيقة الظاهرة المدروسة.. أن جمع تيارات فكرية مختلفة عبر أزمنة مختلفة داخل دائرة واحدة ليس وسيلة مقبولة للخروج بنتائج صحيحة خاصة وأن هذه النتائج ــ فيما يبدو ــ محددة أوليا.. أضف الى ذلك أنه يصعب اعتبار اهتمامات متعددة على مستوى واحد. ان أبحاث

لغويٍّ في مجال اللغة لا يمكن ان يكون لها نفس القيمة والاهمية لاراء وتأملات لغوية عند باحث أدبي أو فيلسوف أو فقيه... لنقل على الاقل : لايجوز لنا تقييم كل هذه الاعمال على مستوى واحد ومن نفس المنظار. ان هذا «التجانس المصطنع» جعل المؤلف يجد كامل الحرية في الاعتماد على نصوص معينة... مما يلاحظ على هذه النصوص أنها تقدم آراء لا تتجاوز أن تكون عبارة عن تعاريف بسيطة أو مداخل معجمية لبعض المفاهيم التي ناقشها البحث (مثل اللغة، المواطأة، المواضعة، الوضع، اكتساب اللغة...) بل اننا نلاحظ اعتمادا كبيرا على نصوص تسير في اتجاه فكري معين. نعم لقد اعتمد المؤلف وبشكل ملحوظ على آراء القاضي عبد الجبار (وهو معتزلي) من خلال كتابه «المغني». وتُوَضّح عملية جرد الاسماء الواردة في الكتاب صحة ما نقول. فقد ورد ذكر القاضي عبد الجبار حوالي 121 مرة يليه ابن جني 53 مرة فابن حزم 50 مرة فالفارابي 49 مرة...)

وبهذا يكون البحث قد تركز حول تيار معين. وكان من الاجدر أن يطلق المؤلف على بحثه «نظرية اللغة عند عبد الجبار» أو بصفة عامة نظرية المعتزلة في اللغة(1).

كما أن الرجوع الى اراء متفرقة هنا وهناك ـــ دونما رابط بينها في غالب الاحيان يجعل من الصعب جدا صياغة هذه الاراء في نسق فكري موحد يستحق تسمية نظرية لانها تفقد عنصر التكامل نتيجة اختلافها من حيث المنطلق. ومعنى هذا أنه من العسير أن نؤول هذه النصوص بطريقة موحدة او نعطيها بعدا نظريا شاملا يصدق عليها كبنية فكرية عامة نظرا لتعدد مشاربها واختلاف منطلقاتها وتشعب اهدافها وغاياتها...

وعلى ضوء هذه الملاحظات الاولية حول منهجية مؤلف الكتاب سنحاول أن نعرض لمحتويات الكتاب. لقد قلنا سابقا انه من الصعب علينا أن نفصل الحديث في كل الاشياء الواردة في الكتاب لوفرتها من جهة ولعموميتها من جهة ثانية. لذلك سنكتفي بالاشارة الى أهم الآراء والقضايا الواردة فيه...

ان الكتاب يبحث في محور أساسي يمكن تلخيصه فيما يلي : «طبيعة اللغة البشرية أو ماهية الكلام الانساني». ويتناول المؤلف عرض وجهات نظر المفكرين العرب حول طبيعة اللغة (أصلها، وعلاقتها بالانسان في أبعاده الزمانية والمكانية على المستوى الفردي والاجتماعي... وما يرتبط بهذه القضايا...)

وهذه القضايا كما يبدو مباحث فلسفية أكثر منها لغوية كما أنها ليست مهمة على المستوى المعرفي لكونها لا تخضع لمقاييس معرفية مضبوطة وانما تبقى مجرد تأملات (ومضات كما يصفها المؤلف نفسه) لا هي فلسفة لغوية حقيقية ولا هي مباحث لسانية محضة...

ففيما يتعلق بالجزء المخصص لعلاقة الانسان باللغة في أبعادها الفردية والاجتماعية

نلمس بشكل ظاهر **غياب اشكالية** يتمحور حولها البحث خاصة وأن الموضوع ليس جديدا بل ولا يثير أي جديد على المستوى المعرفي. ذلك أن علاقة الانسان باللغة هي في نهاية الأمر علاقة «اقتضاء وضرورة» ومهما اختلفت التصورات والابعاد فانها تلتقي عند هذه الحقيقة. ولعل غياب الاشكالية في هذا الفصل وفي غيره من الفصول هو ما جعل البحث عبارة عن تقديم لنصوص قديمة يراد منها تعليق مؤلف الكتاب وهو تعليق يعتمد على أسلوب أدبي يعيد به المؤلف في غالب الاحيان مضمون النص الاصلي أو يؤوله بطريقة اعتباطية طالما أن «النص» اذا ازيل من مكانه (سياقه الاصلي) فانه لا يحقق دائما نفس الغاية التي ارادها له المؤلف الاصلي وهذه كذلك أحدى صعوبات القراءة...

ويمكن القول بأن اراء المفكرين العرب في هذا الباب لا تزيد عن كونها ملاحظات عامة أقرب ما تكون الى «الحس المشترك» منها الى تفكير نظري محدد اذ أنها غالبا ما تكون مدخلا أو تذكيرا بمقولات عامة يوردونها قبل التطرق الى الموضوع الاساس...

وقد نتج عن غياب الاشكالية أن القارىء يجد نفسه أمام كلام يدور في حلقة مفرغة لا ينتهي معه الى نتيجة معينة وانما الى ملاحظات صالحة لكل الاشياء... كما ينتج عن هذا الفراغ الاشكالي عدم وجود أية علاقة بين الاراء المطروحة وبين نظام اللغة العربية في حد ذاته مما يؤكد عدم جدواها بالنسبة للدراسات اللغوية..

ولقد حاول مؤلف الكتاب أن يعطي للاراء المطروحة حول علاقة الانسان باللغة بعدا معرفيا ليسمو بالمناقشة الى مستوى نظري عميق فَأَكْثَرَ من التأويل والشرح بل ولقد أسرف وبالغ في الاستنطاق. وهكذا مثالا فعندما يردد ابن مسكويه المقولة المعروفة «الانسان مدني بالطبع» فان مؤلفنا يذهب في فهمه الى حدود أبعد مما يقوله ابن مسكويه نفسه اذ يعطي (المؤلف) للمقولة السابقة بعدا معرفيا (وحتى هذا البعد لا يستحق هذا الوصف).. جاعلا من الكلام في المدينة «قطب الرحى في جدلية التعايش والتواجد» (ص51) نظرا«لاقتضاء الوجود الجماعي الى تكامل يحقق وحدة الخلية»... لكن النتيجة هي أن لا شيء وراء هذا الشرح والتأويل.. فمقولة الانسان مدني بالطبع لا تدل فقط على أهمية الكلام في الحياة (فهذا ما لا يحتاج الى تنظير) وإنما تدل على أشياء أخرى لا تقل أهمية كالتواجد الاجتماعي للانسان داخل محيط معين تحدده علائق معينة في اطار قوانين معينة (عند ابن مسكويه تبرير أخلاقي — معياري — للتمدن).

وبالتالي نؤكد أن فكرة الكلام كمركز للتمدن ليست سوى فكرة عابرة عند ابن مسكويه انطلاقا من اهتماماته الفكرية (الأخلاقية — الاجتماعية).

ويمكننا أن نوجه نفس الملاحظة لما أعطاه المؤلف من تأويل لقولة ابن حزم «لا سبيل

الى بقاء الناس ووجودهم دون «كلام» وهي فكرة تكشف عن كثير من العمومية قد لا ترق الى مستوى النظر المعرفي الدقيق مهما كانت براعة المؤلف في الشرح والتأويل.. بل اننا لا نتقف نهائيا عند ما تُحَمَّل هذه الاقوال وتشحن بمضامين فلسفية ومعرفية عبر اسقاط آلي كما يتضح من تلخيص آراء المفكرين العرب فيما يخص وجود الكلام عند الانسان كرمز...

← الانسانية (الشهرستاني)

الكلام رمز

← العقـــل

← الحركة (ابن خلدون)

← الوجود (ابن حزم)

← الـــخ...

كما تأخذ اللغة عندهم حسب المؤلف مضامين فلسفية متعددة

← مفتاح العالم الخارجي

اللغـة

← احدى مقومات الحياة العضوية

← التئام البشر مع مستوجبات الطبيعة

← التواصل الاجتماعي

← الافهام وسد حاجياته الاجتماعية

واذا كان من الممكن أن نلاحظ أن اكثر من مفكر واحد قد يلتقي عند نفس التصور كالقول مثلا بأن الكلام هو المؤشر الحقيقي على «وجود الانسان» اذ نجد هذا عند ابن حزم كما نجده عند الجرجاني الذي يقول «ان بين الوجود والعدم الكلام»...

الا أننا لا نلمس ــ نتيجة التجانس المصطنع ــ خصائص كل تفكير وربط هذا الرأي أو ذاك بابعاده ومنطلقاته الفلسفية عند كل منهما.. خاصة ونحن نعلم أن اهتمامات هؤلاء الرجال جميعا لا تسير في نفس النهج... بالاضافة الى تداخل في عرض الاراء. فالمؤلف ينتقل من مفكر الى آخر دونما اعتبار للاختلافات النظرية والمذهبية بل للاهتمامات الفكرية الاساسية عند كل مفكر... وهكذا ينتقل المؤلف (في خلال الصفحات 46 ــ 55) من الشهرستاني الى ابن منظور فإخوان الصفا ثم الرازي فالفارابي فأبو حيان التوحيدي فابن جني فحازم القرطاجي فالغزالي فابن وهب الكاتب فابن حزم فابن سنان الخفاجي فالقاضي عبد الجبار فابن خلدون فعبد القاهر الجرجاني فابن رشيق القيرواني، مع عودة الاسم الواحد اكثر من مرة...

وقد أدى هذا التنقل غير المضبوط الى بروز شيء أساسي نعتبره سمة غالبة في البحث الا وهو **تفكك الموضوع أو الموضوعات المدروسة** وعدم حضور منهجية ثابتة في تناول الآراء المذكورة من خلال كلمات عامة... صحيح أن هناك ثبتاً مستمرا للنصوص التي تمثل الاراء... ولكن هذا الاستحضار غالبا ما يتم دون وجود رابط عضوي بينها مما جعل فصول الكتاب وحدات تتوفر على كثير من الاستقلال...

وفيما يخص قضية «اصل اللغة» فاننا نعتقد ان البحث فيها أصبح متجاوزا جدا نظرا لان الامر لا يعدو أن يكون مجرد افتراضات وتخمينات لا تقوم على أسس علمية صحيحة والواقع ان مؤلف الكتاب كان على حق حينما ربط قضية البحث في أصل اللغة بالبحث في أصل الانسانية. يقول «لن يتسنى لنا بسط احتمال مرجح في اصل نشأة اللغة [...] مالم تقدم فرضية في أصل نشأة الانسان» (ص 58) وعلى كل حال فمهما كانت النتائج التي قد تصل اليها هذه الفرضية ومهما كانت قوتها العلمية فانها لن تأتي بجديد بالنسبة للبحث اللساني انطلاقا من أننا نربط وجود اللغة بوجود الانسان والعكس... وقد نذهب بعيدا فنؤكد ان اشكالية البحث في أصل اللغة اشكالية زائفة وان البحث فيها على حد تعبير الفارابي «فضول لا أصل له» وفي رأينا أن طرح المؤلف هذه القضية كان خاليا من أية دلالة رغم تغيير جذري في كثير من المفاهيم... (المواضعة المواطاة..) ولربما كان عليه أن يقوم في هذا الموضوع بوضع الاشكالية المذكورة في اطار آخر الا وهو المقارنة. فمادام البحث يهدف الى ابراز «نصيب مساهمة الحضارة العربية» في الفكر اللغوي أي اعمال العرب بالقياس الى اعمال أخرى... فقد كان من الممكن مثلا حتى تتضح جوانب المساهمة العربية ــ ان تربط اشكالية اصل اللغة عند العرب بثقافات أخرى انطلاقا من الفكر اليوناني [افلاطون في محاورة قراطيلوس ارسطو...] مرورا بالفكر المدرسي الغربي... آدام سميث. Turgot. كونديلاك. روسو... وغيرهم(2) لكن لم يحصل شيء من هذا القبيل. فهل يعني ان مؤلف الكتاب حاول تطبيق ما أعلن عنه سابقا من أنه لن يقوم بأية مقارنة صريحة ؟ غير ان هذه الرغبة جعلت طرح القضية خاليا من كل أهمية خاصة وأن قضية «اصل اللغة» طرحت بشكل عام وليس هناك أي رابط بينها وبين القضايا اللغوية أو النحوية أو البلاغية بل حتى بالقضايا الفلسفية وقضايا علم الكلام (كالبحث في علاقة المذهبين المتعارضين في قضية اصل اللغة بالمذاهب الفكرية الاعتزال ــ السنة...)

وطبعا فان اشكالية اصل اللغة لا تخلو من اهمية أن هي ربطت بقضايا فكرية اخرى وقد اشار المؤلف بوضوح الى العلاقة بين اشكالية اصل اللغة في طرحها الوضعي وبين مفهوم اللغة في حد ذاتها (ص 126) غير ان المؤلف لم يتعرض لهذا الموضوع رغم تأكيده العضوي بين المفهومين لكنه لم يفصل القول فيه وانما اكتفى باشارة عابرة...

نأتي بعد هذا الى محور «الزمن وعلاقته باللغة» ونحن اذ نتفق مبدئيا مع مؤلف الكتاب فيما ذهب اليه من ان المفكرين العرب ادركوا اهمية البعد الزمني وأثره في اللغة فاننا لا نجد عمليا ما يؤكد هذا الادراك اي غياب الاستشهاد او الدليل اللغوي في حد ذاته... فنحن لا نعثر على امثلة نابعة من صميم نظام العربية تبين التطور الزمني في بعده التطبيقي. صحيح ان هناك وعيا بالعامل الزمني لكن هذا الوعي يبقى بعيدا عن واقع اللغة العربية وانظمتها. ان ادراكهم لانتقال العربية مثلا من حالة الى حالة (بالمفهوم السوسوري لكلمة حالة) كان ادراكا عاما جدا لم يستطيعوا معه الوصول الى قانون يبين اثر التطور... مما جعلنا لا نتوفر على نماذج ملموسة في هذا الموضوع.

لقد كان لديهم «حس مشترك» بالتطور الزمني انطلاقا لا من اللغة ذاتها (من حيث هي نظام وبنية) ولكن انطلاقا من ظواهر اخرى كتعاقب الاسر الحاكمة ووصول دول جديدة للحكم... فالتطور رهين بالتغيير السياسي كما يمكن فهم هذا من قولة ابن خلدون : «اعلم ان لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجيل الغالبين عليها. ص 379 من المقدمة (و ص 98 من الكتاب) حيث يربط التغيير اللغوي بالتغيير السياسي وان فساد العربية وحلول اللحن فيها هو نتيجة مجيء حكام «لم يكونوا على دين الاسلام» و «ليسوا عربا..» كما يقول ابن حزم : «ان اللغة يسقط اكثرها ويبطل بسقوط دولة اهلها» (ص 99 من الكتاب) واذا صح ان يستنتج مؤلف الكتاب من هذا النص ان لدى المفكرين وعيا بالتطور فان المسألة تبقى عند هذا الحد ولا تصل الى نتائج هذا الوعي على مستى نظام اللغة العربية فاللحن والخطأ هما نتيجة تطور لكن بنية اللغة تبقى ثابتة لا تتأثر بهذا النظام...

كما نجد انفسنا — هنا كذلك — أمام طرح بسيط لقضية هامة تتعلق بموقف العرب من هذا اللحن والخطأ في القواعد والاصوات والمعجم... والواقع ان المؤلف تغافل ربط هذه القضية (التطور) بأشياء اخرى في الثقافة العربية وهي تحديد مستويات العربية المدروسة اي تعيين عربية افترض فيها انها هي الممثل الشرعي والوحيد للغة العربية فكان رفضهم الاستشهاد بعربية المولدين (حتى العرب الخلص منهم...) مما يبين ان فهم العرب للبعد الزمني كان متسما بصفة اساسية وهي ان الزمن في اللغة (الزمن كتغير اوضاع سلطوية معينة) **عامل هدام**... فكان تحديد ما يسمى بعصور الاحتجاج وكانت مواقفهم المعروفة من عربية الاجيال اللاحقة... ولعل مؤلف الكتاب يوافقنا كثيرا فيما قلنا فهو نفسه يقول عن نشأة النحو العربي. «لم يكن يرسم لنفسه غاية الكشف العلماني اسرار الظاهرة اللغوية بقدر ما كان (...) **كابحا لجموح** التفاعل بين المؤسسة اللغوية وناموس الزمن الطبيعي» ص 93...

لقد كان بودنا ان نستمر في مناقشة ما اورده مؤلف الكتاب غير ان ضيق الحيز لا يسمح لنا بالاضافة الى ان الفصول الاخرى من الكتاب تناولت قضايا مرتبطة بما ذكرناه سابقا

خاصة ما يتعلق بالملكة والفطرة والغريزة اللغوية عند المتكلمين وكيف يفهمها المفكرون العرب وعلاقة اللغة كملكة بالنحو كتقعيد لهذه الملكة وعلاقة اللغة الأم باللغة المكتسبة...

غير ان تناول هذه الموضوعات قد تم من زاوية معينة لا يتفق عليها الجميع اذ يفترض المؤلف ان اللغة العربية هي اللغة الأم بالنسبة لجميع المتكلمين العرب وبدون استثناء (تهميش اللهجات وافراغها من دورها الاجتماعي). كما ان مناقشة العلاقة بين الملكة والفطنة (اي تفاعل الملكة الطبيعية مع المعرفة) ليست سوى جزء معين من اشكالية معقدة. ثم ان القضايا التي ناقشها المفكرون العرب تمثل مستوى خاصا من الادراك اللغوي وهي وضعية اللغة عند المتكلمين باللغة عن طريق التعلم. اما الذين يتكلمون لغتهم بالفطرة فان كثيرا من هذه الامور التي أوردها لا تنطبق عليهم... لان تصور المفكرين العرب (ومعهم المؤلف) يقوم على وجود اناس يتكلمون اللغة عن طريق الصناعة (القواعد النحوية) مما يجعل اللغة المعتبرة هنا لغة تمثل مستوى خاصا وهو «مستوى اللغة الادبية» او «اللغة الفصيحة».

هذه الملاحظة ايضا تصدق على البحث المتعلق بتداخل الانظمة اللغوية عند الفرد الواحد او ما يسميه مؤلف الكتاب «بازدواج التحصيل اللساني» (ص 230) وما بعدها. وهو منطلق كما قلنا ليس متفقا عليه مبدئيا قبل الخوض في تفاصيله. والواقع ان باقي الفصول لا تخرج عن هذا الاطار الذي حاولنا ان نرسمه بكل موضوعية رغم ان ضيق المكان جعلنا نتحرك في دائرة محدودة...

قبل ان نختم مقالنا هذا نريد ان نعود الى مسألة هامة في هذا البحث...

لقد وعدنا المؤلف في بداية عرضه بأن طريقته في القراءة ستعتمد على بعض المقولات اللسانية المعاصرة. والواقع ان طموح المؤلف كان اكبر من عمله. فالكتاب لا يقدم مقولات لسانية حديثة جديرة بالاهتمام. فلقد اكتفى بالاشارة الى بعض المعلومات العامة والأولية في مجال اللسانيات كوظائف جاكبسون، واعتباطية الحدث اللساني، وخطية الخطاب ومفهوم التوليد (بالمفهوم التشومسكي لكلمة توليد) مع مفاهيم اخرى بسيطة (المثلث السيميائي الخ...) متناثرة هنا وهناك في صورة مصطلحات تقنية جدا... وقد جاءت هذه المفاهيم بشكل خافت وذلك في اطار مقارنة (ضمنية) تستهدف ربط الفكر اللغوي القديم بالآراء الحديثة.. كما جاء توظيف المؤلف لهذه المقولات عبارة عن عرض استعراضي، اذ غالبا ما اقحمت داخل العرض الاساسي من غير مبرر وهذا راجع في نظرنا الى غياب خطة محددة منهجيا او نظريا والى غياب موقف المؤلف من المقولات المعروضة نفسها قبل استخدام هذه المقولات... والنتيجة ان هذه المقولات لم تستطع نهائيا ان تبين اهمية الآراء العربية ولا قيمتها ولا حقيقة مضمونها...

وكما لاحظنا من قبل «تجانس» الآراء العربية لاحظنا تجانس المقولات اللسانية وهو أمر ليس مقبولا نهائيا لاختلاف الزوايا والابعاد النظرية والمنهجية عند اصحاب هذه المقولات اللسانية.

وعموما نقول بأن غياب الأشكاليات وعدم ربط القضايا المطروحة بالقضايا اللغوية المحضة او بقضايا اخرى في الثقافة العربية جعلنا نتساءل عن فائدة البحث وجدواه. ما الذي يريد ان يصل اليه المؤلف ؟ هل استطاع ان يساهم في توضيح معالم الفكر اللغوي عند العرب ؟ .. لا نعتقد ان القارئ ــ عاديا كان ام متخصصا ــ باستطاعته ان يخرج بنظرة محددة المعالم عن نظرية العرب في مجال اللغة... خاصة وأن هناك جملة كبيرة من الآراء طرحت بشكل عام في الوقت الذي تستحق فيه كل قضية بحثا مفصلا ودقيقا.

يضاف الى هذا وذاك صعوبة القراءة كمنهجية اتبعها المؤلف خاصة فيما يتعلق بحدود التأويل والاستنطاق واستخلاص النتائج من مفاهيم عامة معزولة عن سياقها الاصلي... ولقد لاحظنا ان المؤلف راح يؤول نصوص المفكرين ويعطيها ابعادا غير واضحة دائما في النص الاصلي فمثلا يقول ابن خلدون بأن «السمع ابو الملكات اللسانية». وأن «اكتساب الحدث اللساني محصول معادلة الممارسة والتكرار» مع اعطاء هذه القضية بعدا شموليا حيث يذهب الى ان جميع الملكات ــ لا الملكة اللغوية فقط ــ لا تحصل الا بتكرار الافعال... وهي مجموعة من الملاحظات الواضحة من حيث هي موقف التكرار والعادة الى مفهوم التوليد عن طريق القول ببنيات لسانية جاهزة اوليا كما يذهب الى ذلك النحو التوليدي عند تشومسكي (انظر ص 227 من كتاب المسدي)... ومن المعروف ان تشومسكي بين فساد النظرية القائلة بأن اكتساب اللغة يتم عن طريق العادة...(3).

وبذلك يكون التراث العربي في مجال اللغة قابلا لان يقولب في اي اطار نظري الى ما لا نهاية... مما يجعله في نهاية الأمر يفتقد خصوصياته ونوعياته... وقد تحتاج عملية القولبة هذه كما في الكتاب الذي بين ايدينا الى براعة المؤلف في الاعتماد على اسلوب ادبي يبتعد كثيرا عن خصائص ومقومات الخطاب العلمي... والواقع ان لجوء المؤلف الى أسلوب ادبي شيق (ويجب الاعتراف بهذا) في مناقشة قضايا علمية (او من المفروض ان تكون هكذا) لم يساهم في اعطاء الصبغة العلمية للقضايا المطروحة بقدر ما جعلتها على جانب كبير من الادبيات...

الهوامــش :

1) من المعروف أن ابن جني كان معتزليا. هذا على الأقل ما تؤكده معظم الدراسات في هذا الموضوع.

2) Cf : Varia Linguistica : textes de Maupertuis, Turgot, Condillac, Du Marsais, Adam Smith...

Collection Durcob. 1970 Bordeaux.

3) Cf. N. CHOMSKY : Un Compte rendu du «Comportement verbal» de B.F. Skinner in langages n°16 Décembre 1969 Larousse. Paris.